غذاء الكاتب

تأليف
دكتـور
رزق مرسى أبو العبـاس عـلى
الأستاذ المسـاعد بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خلق الإنسان علمه البيان وصلاة وسلاما على صاحب أحلى لسان وأوعى جنان .

أما بعد ..

فإن الكتابة فن من الفنون ووسيلة توصيل أمينة تجيد النقل وتتقن الأداء بقدر ما يكون فى الكاتب من مشاعر وفى الأديب من احساس وقدر ما يكون العطاء الإلهى من الموهبة لهذا الكاتب وذلك الأديب . ونحن إذ قررنا أن الكتابة وسيلة توصيل أمينة فليس المراد من ذلك أن تكون آلة تصوير تنقل ما تراه ، لكنها لابد من أن تحمل مزية تضاف إلى النقل أنها مزية الابداع ، تلك المزية التى يفيض بها شعور الكاتب فلا يغالط ولا يكذب بل يأتى باللآلىء ويختلق الجوهر الذى يسلكه فى فى عقد من الممكن أن يكون ثمينا إذا اختار بدايته ووسطه ونهايته بحيث يضع كل جوهرة فى مكانها .

والأدب ثقافة وذوق وكلاهما مطلوب ليرتكز عليه ذلك المعنى المعبر بالحروف ، والذى تحل فيه الكلمات محل الألوان عند إبراز الرسوم .

وقديما قال صاحب معجم الأدباء لياقوت(١) عن ذلك المعنى (إنما هو علم الملوك والوزراء ، والجلة من الناس والكبراء ، يجعلونه ربيعا لقلوبهم ونزهة لنفوسهم ، ترتاح إليه أوراحهم ، وتشتمل عليه أفراحهم ، فهو ربيع النفوس النفيسة ، ورأس مال العلوم الرئيسة).

(١) معجم الأدباء لياقوت ـ المقدمة .

وإذا كان ما رويناه من كلام ياقوت بعض رأيه فى الأدب فلنستمع أيضا إلى بعض رأيه فى أهل الأدب وبالتالى فى الأدب أيضا لأن كلامه عن أهل الأدب ينطبق على ما تحلى به أولئك الأدباء - يقول ياقوت (وقد جمعت من أخبار هذه الطائفة بين حكم وأمثال ، وأخبار وأشعار، ونثر وآثار ، وهزل وجد ، وخلاعة وزهد ، ومبك ومضحك ، وموعظة ونسك :

من كل معنى يكاد الميت يفهمه

حسنا ويعبده القرطاس والقلم

فهو لا ينفق إلا على من جبل على العلم طبعه ، وعار بحب الفضل زبعه ، تظل للآداب خدينا ، ولصحة العقل قرينا ، قد عجنت بالظرافة طينته ، وسيرت باللطافة سيرته) .

وعنهم يقول أيضا (وأما من عرف بالتصنيف ، وأشتهر بالتأليف، وصحت روايته ، وشاعت درايته ، وقل شعره ، وكثر نثره ، فهذا الكتاب عشه ووكره) .

والكاتب الموهوب لابد له من أن يبنى فنه على دعامتين أساسيتين إنه الفن والذى هو ينتمى إلى الذوق ولا يكون الفن وحده ليشهد لموهبة الكاتب ، بل لابد من الدعامة الثانية أنها الثقافة والتى نقرأ عنها بعض ما كتبه ابن قتيبة فى كتابه (أدب الكاتب) وابن الأثير فى كتابه (المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر) . ومن قبل ما خطه يراع شيخ الأدباء أبى عثمان عمر بن بحر الجاحظ . ومن الممكن أن يفيد الشاعر من مقالنا هذا كما يفيد الكاتب حتى تغنى الصورة ويفعم التركيب اللغوى بالحيوية.

إذا لابد من الثقافة أولا ليستعين بها الكاتب على تقويم عبارتـه حتى تتربى ملكته على التركيب الصحيح حيث يأتى أسلوب الكاتب موافقا للقواعد المتفق على صحتها فى ميادين مختلفة تهتم كلها بسلامة التعبير اللغوى ما دام الأمر كذلك وما دامت الكتابة فنا من الفنون يحتاج إلى نمو وازدياد وتجديد لا تكرار وافادة فى غير افادة ، فلنرشد الكاتب إلى وسائل تجدد صوره وتزيد من ابداعه وتعمل على كثرة انتاجه الأدبى وقوة ابداعه الفكرى .

على أننى لن أتحدث عن وسائل ثقافته والتى سبق أن أرشـدت إلى وجودها عند أبى قتيبة وابن الأثير والجاحظ وبشر بن المعتمر وغير ذلك ، لكننى سوف أتناول الوسائل التى تعمل على اغناء صورته وتجديد فكرته ، وهذه الوسائل تنحصر فى أمور ثلاثة :

أولا : القـراءة :

ونعنى بها الإطلاع على أفكار الآخرين ونحن لا نحصره فى زمن معين ولا لغة بعينها ولا فن مقصود بل نطلب إليه أن يطلـع على كل ما سبقه لا سيما النتاج الأدبى لكل عصر من العصور وكيف نظر النقـاد إلى هذا النتاج وكيف قوموا صـاحبه بميزان النقد العـادل حتى تلك الموازين التى يفلت زمامها من أصحابها فتميل بالنقد إلى جهة معينـة يجب على الكاتب أن يقرأ كل هذا ليتزود بفكر هؤلاء جميعا معتدلهم وحائدهم عن الجادة ليتعلم من كل فيفيد من الاعتدال ليكون معتـدلا ولا يحرم الفائدة ممن حاد عن جادة الصواب فتدفعه تلك الفائدة إلى أن يلتزم جانب الاعتدال .

ولا يكتفى بقراءة ما كتب بلغته بل يحـاول أن يلقى نظرة على ما كتب بغير لغته على أن يستعين بالترجمة إن كان يفقد الالمام بتـلك اللغة أما ان كان ملما بها فهو أفضل وحينئذ يصل إلى خصائص ربمـا يفتقدها لو قـرأ عن طريق الترجمـة فقط ولو كانت القـراءة عن طريق الترجمة فيلزمه أن لا يكتفى بترجمة واحدة ، وسوف يجد بين الترجمات العديدة ما يدله على فائدة أكثر تختلف باختلاف المترجمين ولا يكتفى الكاتب بقراءة تعينه على فهم مصدر معين من أمهات الكتب بل يقرأ نفس المصدر كلما أمكن ذلك فربما وفق الكاتب إلى فكر معين لم يكن قد ذكره صاحب الدراسة فان الكاتب الذى ينهل من معين الثقافة الأول ثم يدعـم ذلك المعين بدراسة تعرضت له لهو أفضل من كاتب يكتفى بقراءة دراسة أو دراستين حول معين دون أن يطلع على ذلك المعين ولنضرب لذلك مثلا فنقـول :

أن كتاب (البيان والتبيين) لأبى عثمان الجاحظ قد تعرضت له أكثر من دراسة وكتب حوله ما كتب وربما ركز الباحث جهده على ناحية معينة فى الكتاب بلاغية كانت أو أدبية أو تاريخيـة إلى غير ذلك مـن مختلف الآفاق التى طوف فيها كتاب (البيان والتبيين) وربما تعـرض باحث الأدب أو رجل البلاغة إلى زاوية معينة دون أن يطيل الكلام فى كل أدبيات الكتاب أو بلاغياته ليفيد من النقطة التى تفرض لها ، وهكذا يفوت على الكاتب مصلحة الانتفاع بغير ما تعرض له صاحب الدراسـة التى ارتأى الكاتب أن يقرأها لذلك ننصح له بقراءة مصادرنا الثقافيـة الأولى وما قيل فى (البيان والتبيين) يقال فى غيره من أمهات الكتب مثل (الأغاني) لأبى الفرج الأصفهانى و (الآمالى) لأبى على القالى

وغيرها من أمهات الكتب العربية ليقف بنفسه على أسلوب القصر الذى كتبت فيه هذه الكتب ، وكيف أن لأصحابها تخطيطا ومناهج معينة كانوا يتأسون بها وينتهجونها فى كتاباتهم .

والقراءة كما وصفها الدكتور طه حسين حين رأى الشباب ينصرفون عنها ويحاول الكثير منهم أن يمسك بقلمه ليخط به خطوطا تملأ القراطيس وربما خلت من الفائدة بل هى من الفائدة بعيدة كل البعد وذلك لأن الدكتور طه حسين وجد أن الشباب يكتبون دون أن يتعمقوا فى القراءة ويتزودوا بها ، وحتى ذلك الذى يقرأ فغايته أن يشغل وقته لا أن يعمل فنصح بأن تكون القراءة للتغذية لا أن تكون للتسلية ، وإذا كنت قد طلبت إلى الكاتب أن يقرأ كل ما سبقه وكل ما كتب فى عصره فكلما تقدم الزمان زادت أعباء الكاتب بازدياد تلك الكتب التى تؤلف فى عصره إذ أن لكل عصر نتاجه الفكرى وابداعه الأدبى .

وربما رأى بعض الكتاب أن يقصر جهده فى القراءة على لون معين من الفنون كأن يقرأ شعر المتنبى فقط أو شعر العصر العباسى بصفة خاصة أو يتعرض للكتابة فى عصر معين أو للقصة فى عصرنا الحديث أو بقلم الأديب (فلان) وهذا مما يجعل القصور يدب إلى ثقافته دبيبا ، ولعله لا يتنبه إلى هذا القصور إلا بعد أن يعتاد عقله على لون معين من الثقافة ربما يصعب عليه التغيير أو يحتاج إلى زمن طويل يدعم فيه ثقافته بما يشد أزرها ويقوى من عزيمتها وقد سؤل المرحوم (العقاد) حول هذا الموضوع فطلب إليه أن ينصح بقراءة كتاب معين يكون أنفع لذلك الشاب الذى يريد أن يكون قلمه يسهم به فيما بعد ، وأن يكون ذلك الكتاب أعون على تثقيفه وتربية الملكة الأدبية عنده فلم يكن من الاستاذ عباس العقاد إلا أن ذكر سائله بأمر من ذهب إلى الطبيب ليستنصحه عن طعام

مفيد يؤدى جميع الوظائف العضوية والنفسية للإنسان وبين الاستاذ العقاد أن الطبيب لا ينصح بطعام معين إلا إذا كان سائله مريضا تستعصى على جسده بعض الأطعمة أما إذا كان السائل سليما فلا شك أن اجابة الطبيب ستكون النصح بتناول كل شيء وما قيل فى أمر المعدة يقال فى أمر العقل لكننا لا ننسى أن القارىء قد يميل إلى لون معين من الفن فربما استهواه الشعر أو القصة أو النتاج المسرحى فلا بأس من أن يعطى النصيب الأوفى لذلك الذى يميل إليه دون أن يهضم بقية الفنون حقها لعله يميل إلى الشعر لا أنه يستطيع أن يسهم بقلمه فى ميدانه اما شاعرا واما ناقدا، وحتى ميدان الشعر فانه فسيح جدا لدرجة أن القارىء ربما اكتفى بشاعر أو بطابع شعرى واحد أو بعصر شعرى واحد إلى آخره مما يمكن التعمق فيه وسبر أغواره والوقوف على خصائه ولكن دون أن ينسى غيره من الفنون فمن حين إلى حين يدعم ثقافته بتغيير ذلك الذى يقرأ فى ميدانه دائما ، وذلك يكون أعون على مزيد من التنويع فى فنه الذى يهتم به فإن الفنون الأدبية بعضها يصب فى بعض أن لم يكن بالصورة كما هو الحال فى الشعر أو فى فن معين فالتصوير الذى يمكن لجميع الأدباء أن يفيدوا منه على اختلاف فنونهم ، والقراءة تعنى الاطلاع على أفكار الآخرين سواء سجل هذا الفكر فى كتاب أو فى صحيفة سيارة أو مجلة فإن الإطلاع على كل هذه المدونات يقف بالكاتب على فكر غيره فربما سبقت الصحيفة والمجلة إلى شيء لم يصل إليه كاتب وربما اقتصر الكاتب على أن ينشر أعماله فى الدوريات دون أن يعدها فى كتب ولو أن الكاتب قد وقف قراءته على الكتب دون الصحف والمجلات لحرم الاطلاع على تلك الأعمال التى استأثرت بها بطون الدوريات ، وربما جهل الكاتب أمر أحد المفكرين الذين لم تتجاوز أعمالهم هذه الدوريات وبالتالي يكون

ثمة خير كثير قد فوته الكاتب على نفسه حين قصر جهد القراءة على الكتب المعدة دون أن ينظر إلى الدوريات ٠

وإذا كنا قد أطلنا الوقوف عند القراءة وذلك لما سوف يحصله الكاتب من ثمرة مرجوة ذات فرعين ٠

(أ) فرع يغذى عقله ويطلعه على فكر غيره ٠

(ب) وفر يأتى دوره بعد الفرع الأول حين يطلع ويقف على فكر غيره ويهضمه ثم يصوغه لنا عن طريق موهبته التى منحه الله إياها متبعا فى ذلك قواعد فن أدبى معين شعرا كان أو نثرا حينئذ صوره وتعذب ألفاظه وتحسن توقيعاته ولا يكون صورة لفلان من الشعراء أو الأدباء بل يكون مزيجا من فلان فى العاطفة وفلان فى الألفاظ وثالث فى انتقاء المعانى ورابع فى القوافى وخامس فى التركيب ، وبالتالى فهو صورة لشخص واحد غذتها صور لأشخاص كثيرة أخذ منها وتعلم على يديها ثم جمعت الثمرة من خلال ما كتب وخرج شذا قلمه ينمو عن شخصيته وفاح أريج قرطاسه ليقول للقراء لقد زرع أزهارى وغرس بساتينى فلان من الشعراء أو الأدباء وهكذا تكون ثمرة القراءة ٠

ا ولمثل هذا فلينتصح الراغبون فى النصيحة ويعطف على القراءة والتى هى بمعنى الاطلاع والاستماع نظرا لتقدم العصر ووجود الاذاعة بنوعيها والكثير من البرامج الثقافية التى تؤدى إلى الأذن وكأن صاحب تلك الأذن يفتح كتابا يقرأ فيه ، وبالتالى لا يفوت الكاتب أى لون من ألوان الاطلاع قراءة كانت أو استماعا ٠

وإذا كان حديثنا عن القراءة نصحا إلى التزود منها ورغبة فى

الاغتراف من نهرها وأملا فى الافادة من مصادرها وطعما فى الغذاء بها ورجاء فى أن يغنى الكاتب صوره ويزين أفكاره بما قرأه وأفاد منه بعد هضمه من فكر غيره ، إذا كنا قد تناولنا ذلك النصح رغبة فيما قصدنا إليه فلا يفوتنا أن نذكر بالقراءة بأسلوب منطقى مفعم بالصدق ملىء بمصلحة الانسان كفيل بأن يغنى أهم عنصر يميزه ألا وهو العقل لذلك نختم حديثنا عن القراءة بخير ختام ألا وهو موقف ديننا الحنيف من القراءة وما لها من أثر بالغ فى تكوين الفرد وبالتالى فى تكوين الجماعة حيث أن الفرد لبنة يشيد منها صرح المجتمع .

لقد كانت أول كلمة نزلت من كتاب رب العالمين هى قوله سبحانه (أقرأ) والحديث موجه بعد رسول الله ﷺ إلى أمته ولقد أكد النبى ﷺ أهميتها بأن جعل تعليم عشرة من ابناء المسلمين القراءة والكتابة فداءا للرجل من أسرى بدر يكون قد عجز عن تقديم ما يفتدى به وفى ذلك الوضوح كل الوضوح لأهمية القراءة فى بناء خير أمة أخرجت للناس وإذا كان هذا هو حال القراءة بالنسبة للافراد العاديين فالكاتب أحق ما يكون اليها لما سبق أن استعرضناه من دواعيه وأسبابه .

ورغم ما للجاحظ من قدم ثابتة فى فن الكتابة تنم عن ذلك مؤلفاته الكثيرة الا أنه قضى حياته كلها بين كتاب يقرأ فيه أو كتاب يعد له ويهديه للفكر العربى . يقول الدكتور محمد عرفه المغربى عن الجاحظ والكتاب (من يقرأ حديثه عن الكتب التى مات بسببها يعجب أشد العجب فقد كانت عنده كل شىء وكان يكتب عنها الصفحات الطوال فى أكثر من كتاب حتى لتحس أن الكتاب صار معشوقه دون خلق الله ولولا المبالغة لقلت أن الكتاب كان معبوده ومتمناه يقول (فالكتاب

هو الذى يؤدى الى الناس كتب الدين وحساب الدواوين مع خفة نقله وصغر حجمه صمات ما أسكته وبليغ ما أستنطقته)(٢) .

ويقول : (والكتب بذلك أولى من بنيان الحجارة وحيطان المدن لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم وأن يميتوا ذكر أعدائهم وكان الجاحظ يقرأ وهو مستلق وكانت قراءته ليلا) ويؤكد هذا ما كتبه فى رسالته فى الجد والهزل يقول (رأيت أن انظر فيها وأنا مستلق ولا أنظر فيها وأنا منتصب استظهارا على تعب البدن اذ كانت الأسافل مثقلة بالأعالى واذا كان الانتصاب يسرع فى ادخال الدهن على الاصلاب لأن ذلك أبقى على نور البصر وأصلح لقوة الناظر اذ كل واحد من هذه المصاحف قد أعجز يدى يثقل جرمه وضيق صدرى بجفاء حجمه واذا ثقل أتكأ الصور وأوهن العظم واذا أنا نظرت فيها وأنا جالس سددت عينى وتقوس ظهرى واجتمع الدم وجهه) ثم يقول (وعلمت أن الدرس لليل وأن الكتاب لا يقرأ الا ليلا والنيران زاهرة والمصابيح مقربه وعلمت أن كل من ضعف بصره وكل نظره فاته أبدا أقرب مصباحا وأعظم نارا ، فاذا كان يقرأ وهو مستلق غير جالس ولا متمكن ويقرأ ليلا فى ضوء مصباح موقد وهو مريض عاجز عن الحركة موهن كان موته على هذه الصورة أمرا مألوفا وشيئا مستساغا)(٣) .

والجاحظ معروف بالقراءة وحب الكتاب وحديثه عن الكتاب حديث

---

(٢) دراسات فى الأدب والنقد - د . محمد عرفه المغربى ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٣) الحيوان - ص ٥٠ .

العاشق المتيم ثم هو يقرأ فى كل شىء قراءة وكأنه كان يأنس الى الكتاب أنسه الى الجليس العاقل الذى يحادثه ويسامره ويقول عنه (نعم الكتاب الزخر والعقد ونعم الجليس والعدة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الأنيس لساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاء الغربة ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل والكتاب وعاء ملىء علما وحشى ظرفا واناءا شحن مزاحا وجدا ان شئت كان أبين من سحبان وائل ، وان شئت كان أعيا من باقل وان شئت ضحكت من نوادره وان شئت عجبت من غرائب فرائده وان شئت ألهتك ظرائفه وان شئت أشجتك مواعظه ومن لك بواعظ ويزاجر مفر وبناسك فاتك بناطق تأخرس ، ومن لك بطبيب أعرابى ، ومن لك برومى وهندى وبفارسى يونانى ومتى رأيت بستانا يحمل فتى ردن وروضة تقل فى حجر وناطقا ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ولا ينطق الا بما تهوى آمن من الأرض وأكتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة)(٤) ولو سرت معه فى حديثه عن الكتاب لرأيت العجب العجاب من هدى شديد وغرام تليد ومن تعدد لفضائله واحصاء لمآثره فى تعبير رصين وأسلوب مكين يبلغ شغاف القلوب كأنه حديث حبيب عن محبوب .

تلك نظرة الجاحظ للكتاب وبعض حديثه عن قيمته وان لم يكن الجاحظ قد حدد الفن الذى ينتسب اليه الكتاب وبالطبع فان الجاحظ ينظر الى كل كتاب نظرة تقدير حتى يعى ما فيه والجاحظ يعد

---

(٤) الحيوان ص ٢٤٣ - جزء ٣ .

بستانا نضيرا فى الوكتابة الأدبية ، وهو أول من أسهم فى ميدان الكتابة الأدبية لذلك استمعنا الى رأيه فى الكتاب مطلقا وقيمته بالنسبة لقارئه وهذا كان قديما فلو عبرنا العصور وانتقلنا الى عصرنا الحديث لننظر قيمة القراءة وأثرها بالنسبة لكتاب عصرنا هو واحد منهم يتحدث عن العمل الأدبى ويجعل له عنوانا يدل على ما يهدف اليه الكاتب أنه الاستاذ / أمين الخولى فى كتابه (فن القول) لقد حدثنا عن نظرة الاقدمين الى البلاغة وكيف قسموها الى علوم وما المباحث التى تندرج تحت كل علم من علوم البلاغة الثلاثة ، وفى نظر الاستاذ أمين الخولى أن الأقدمين لم يوفوا العمل الأدبى حقه من البحث حين اكتفوا بنظرة مقسمة مبوبة لعلوم البلاغة ويذكر الاستاذ أمين الخولى نظرة المحدثين الى درس البلاغة ، فيرى نظرتهم وقد اشتملت على ما يجب الوصول اليه من بحث العمل الأدبى فيذكر ذلك دون أن يغض من قيمة بحثهم ، ويرى الاستاذ أمين الخولى أن العمل الأدبى يمر بمراحل ثلاث (الايجاد - الترتيب - التعبير) .

ويرى أن المرحلة الأولى تحتاج الى أمور منها الارادة والملاحظة والقراءة والتأمل والاخلاص ... الخ . وبعد أن يتحدث عن الأمرين الأولين (الارادة والملاحظة) يذكر لنا رأيه حول القراءة ويربط بينها وبين الملاحظة فيقول :-

(اذا كانت الملاحظة تعرفنا ما حولنا من الكون الذى تناله حواسنا فان وراء ذلك من أنحاء الدنيا ما لا تناله تلك الحواس واذا كنا بالملاحظة نتعرف عصرنا فى الحياة فقيل ذلك عصور وعصور حوت من الحقائق ما نحتاج الى معرفته ، واذا ما كانت الملاحظة

تقتضينا مقدرة خاصة على التفهم والتمعن فان لنا قبل احراز هذه المقدرة أن نستعين بما عرف الآخرون قبلنا وحولنا)(٥) . وكذلك تعوض علينا القراءة كل ما لا تنيله ايانا الملاحظة . فالشاب الناشىء قبل الدربة على الملاحظة يصل قوته بقوى كبار المتفننين ويتلقى عنهم آثار ملاحظتهم الدقيقة وظاهر فهمهم للأحداث والأشخاص والأشياء والرجل الذى اكتملت قوة ملاحظته لما حوله وفى عصره يزيد قوته كمالا بملاحظة الآخرين وما دونوه فى آثارهم عن عصورهم الماضية أو أقطارهم النائية فأعمال الأبطال واحداث التاريخ وآثار الكتاب لا تنال الا بالقراءة وكذلك تكون القراءة مصدرا خصبا ومعينا فياضا لكسب المعانى الأدبية وتقويم ما لديك منها وتعد القراءة بحق من أهم طرق الايجاد الأدبى ومقدمة فعالة للطريق الأخرى من طرق الايجاد تسددها وتزيدها عمقا .

وجلى أن القراءة التى تحقق هذه الغاية انما هى القراءة العميقة المسايرة للكاتب مسايرة تستشف خواطره وحركات نفسه لا تلكم القراءة التى تعبر جملة أو سطر .

ثانيا : التجربة :

بعد أن نصحنا للكاتب بأن يتزود بما استطاع من فكر الآخرين فنصحه بأن يتزود كذلك من فكره هو ، وطريقة التزود من فكره تتلخص فى دعوتنا اياه بأن يحاول الامساك بقلمه رغبة فى أن يسجل بعض مشاعره كتابة وأن مداعبة قلمه لقرطاسه والتى ربما تطول وتقصر

---

(٥) فن القول - أمين الخولي ص ٥٨ .

وربما يلين مداره فيجرى على الأوراق جريا وربما يبخل قلمه عند العطاء انها أحوال عديدة تمر بالكاتب ولكنها لابد أن تقع ولو تهيب الكاتب هذه البداية وتلك التجربة التى غالبا ما تكون رقيقة الحال ضعيفة النسج اذا حاول أن يبسط المعانى ، اذا به شخص يمتح من بئر عميقة بعيدة الأغوار لا يستطيع أن يصل منها الى شىء اللهم الا ذلك القدر اليسير وعندما يسجل الكاتب أفكاره يطلع عليها من آن لآخر وحينئذ يوازن بين ما كان يكتبه بالأمس البعيد وما سجله بالأمس القريب وما شرع فى تقييده فى يومه هذا، وبالتالى يقف على تقدم فكره ومدى انسياب مشاعره على قرطاسة مما يعينه ويدفعه الى استمرار التجربة واليلوغ فى هذا الفن الى الدرجة التى تستحقها موهبته والتى قد منحه الله اياها .

أما أن تهيب الموقف واستصعب الكتابة فلن يصل الى شىء يذكر فى هذا الفن وان وصل فلن يكون الا وصولا متأخرا وعلى ذلك الناشىء البعيد عن المقارنة ونعنى بالمقارنة أن يضع نفسه فلانا من الأدباء أو فلانا فى الميزان ليقارن بين العطاء الفنى الذى يسيل به مداد قلمه وذلك العطاء الهدار الذى تعمر به بطون الكتب والدوريات والذى هو لذلك الكاتب والأديب الذى وازن بين فكره هو وفكر ذلك الكاتب واذا فكر فى المقارنة فهو لا شك رجل يريد أن يتبوأ المكانة المشرفة فى ذلك الفن ونحن لا نستطيع أن نحظر عليه مجال تفكيره ولا يمكننا أن نقيد عقله دون أن ينطلق الى فكر معين لاسيما تلك الموازنة التى يرنو اليها فكره ويتطلع تجاهها خاطره ليطمئن على فنه والدرجة التى وصل اليها فيه لكننا ننصح ذلك الكاتب

الناشىء بنصيحة فحواها : أنه اذا رغب فى عقد موازنة بين نتاجه الأدبى ونتاج أولئك المرموقين فى هذا الفن فليذكر فى نفسه أن هؤلاء الذين تبوأوا مكانة أدبية تليق بنتاجهم لم يصلوا اليها من فراغ وانما مر كل منهم بمراحل تشبه ما يمر أى كاتب ناشىء وعانوا مثل الذى يعانى وربما أكثر ألا نذكر ما نبه اليه « بشر بن المعتمر » فى صحيفته من أن الكلام يكون فى ثلاث منازل ولم لا والعقل يؤكد صحة ما ذهب اليه بشر فى صحيفته وهذا كله لا يمنع من أن يحاول الكاتب الامساك بقلمه وأن يكلفه الاستماع الى لسانه حيث يتولى اللسان ترجمة ما فى الجنان ٠

وربما يسألنى الكاتب عن ذلك الذى يسطره على القرطاس وأى الموضوعات يطرق ٠ هل يتحدث عن عاطفة وطنية ومشاعر تجاه بلده ٠ أم تراه يسجل عاطفة دينية تجيش فى نفسه تفور من آن لآخر ربما تدفعها مناسبة أو يستثيرها حديث لبعض الحاضرين أم ترانا ننصح للكاتب أن يسجل عاطفته الشخصية فيزرع أزهارا مما له ومما عليه وكيف أنه قد مر به كذا ٠٠٠٠ وكذا ٠٠٠ ربما ضاع منه كذا ٠٠ وكذا ٠٠ وربما حصل من دنياه على كذا ٠٠ وكذا ٠٠٠ وهو يتمنى كذا ٠٠ وكذا وان كان يخاف من كذا ٠٠ وكذا ٠٠

ترى ماذا يسجل ذلك الكاتب الناشىء ما دمنا قد قررنا أنه سيمسك قلمه فيستمع الى لسانه الذى يملى عليه ما يتحدث به جنانه ، والجنان مناط الوعى والاحساس من الانسان فلن يخرج منه الا ما رغب فى اخراجه ولن يذيع الا ما تطلع الى اعلانه ولكن يكشف لك الا ذلك القدر الذى يريد الافصاح عنه ، والجنان مكمن العواطف

كلها دينية كانت أو وطنية أو شخصية على اختلاف درجاتها أو اجتماعية أو أى شىء يجيش فى نفس الانسان لذلك لا نحظر عليه تسجيل شىء معين ، كما أننا لا نفرض عليه موضوعا بذاته وانما أمامه القرطاس ضيقا ان أراد وفسيحا أن تمنى ذلك يغرس فيه ما شاء من أفكاره ويستودعه ما يريد الاحتفاظ به من أسراره ويجده الصديق الذى لا يذيع ولا يضيع طالما حافظ هو عليه وناهيك بصديق يقول لك كنت منذ عام تفكر فى كذا .. وكنت منذ شهر تفكر فى كذا .. وكان الموضوع الفلانى قد شغلك منذ أيام قلائل وهكذا تكون قراطيسه صورة لعقله وقلبه معا فضلا عن أنها تعلمه كيف يكتب وكيف يتجرأ قلمه على نقل ما فى جنانه وكيف يستطيع المداد الذى يسيل من براعه أن يتحول الى بساتين مزهره وحدائق مثمرة وان لم يتحقق ذلك فى أول تجربة فلا شك ان تعدد التجارب سوف تؤدى الى مثل هذا ، وربما أحلى بكثير لا شك أن التجربة ستفيده ان لم يكن اليوم فغدا وليسجل ما يدور بخاطره وليتحدث فى أى موضوع يرغب . وما دام الكاتب سوف يجد من نفسه وما يجيش داخلها موضوعا يتحدث فيه أيا كان نوعية الحديث لكن المهم انه قد خاض التجربة ودون بعض ما تنشغل به نفسه ، ولم يكتف بوجود ذلك فى خاطره بل أخرجه الى القرطاس حتى لا تطغى عليه أمور أخرى فتضيع الانشغال به مادام الكاتب قد دفع منه ذلك فقد بقى سؤال هل يكتم الكاتب ذلك الذى دونه ويخفى ذلك الصديق الوفى الأمين ألا وهو قرطاسه . هل يحجب ذلك كله عن نظر القراء . اننا لننصحه فى ذلك بأن يقف من صديق هذا الوفى الأمين وقوفه من أسراره بمعنى أنه يطلع غيره على ما يرغب اطلاع غيره ، أما اذا كان قد سجل

أسرارا يود اخفائها لمضمونها فليحفظ ذلك لنفسه دون أن يطلع عليه أحدا واذا أعلن ما كتب وأذاع ما سجله على قرطاسه فليعلم أن القارىء لن يكون الا واحدا من خمسة : - أما مادحا وأما عائبا وأما غير عابىء بما قرأ وأما منصرفا عن كل كاتب جديد على ساحة الفن وقد لا يجد ذلك المادح فهذا أمر طبيعى والمنتظر أن يطلع المقربين منه ثم الأبعد وان كان يحتمل ما يقال فليطلع القراء جميعا على أنه لانتظر أن يكون القراء جميعا مادحين والمهم أن يفيد من كل ما يلاحظ على فنه ، وربما وجد الكاتب لفكره وفنه نوعا خاصا من القراء وهو ذلك الشخص الذى يضع ما يقرأه فى ميزان النقد العادل وحينئذ يكون الله عز وجل قد هيأ لكاتبنا هذا سبيل رشد وساعة توفيق اذ لا يصادف جميع الكتاب أولئك النقاد الذين ينفقون ليرفعوا مكانة الفن وليقولوا كلمة حق فيما يقرأون لا يدفعهم هوى ولا تميل بهم خصومة وانما عرفوا سبيل النقد فسلكوه وقرأوا الأدب فى أحلى صوره ففهموه واستوعبوا الفن فى غايته فأفادوا منه وأفادوه وعلى ذلك الكاتب أن يستمع الى ذلك الرأى النزيه ليحققه فيما يكتب بعد ذلك وليصغى الى أولئك النقاد اصغاءا تاما يشبه لذة استماعه للنوع الأول من القراء وهم مادحوه أو ليفوق اصغاء تلك اللذة المنتظرة عند سماع أسلوب الاطراء والمدح . وبقى لى أن أشير الى ميدان التجربة ونهر الخبرة والذكريات والخواطر التى يغترف منها الكاتب رغبة فى التسجيل وتدوين ما يود القلم تدوينه عن هذا الميدان أذكر الكاتب بأنه ربما استغل ما يدور بخاطره من أمور شخصية حينئذ أطلب الى الكاتب أن ينظر فى حياة غيره

أو فيما قرأ أو سمع من أشياء أصغى لها حسه وتحركت لها مشاعره وتجاوبت معها عواطفه فلا بأس من أن يأخذ من ذلك مثلا للتجربة وليسجل رأيه فيما سمع أو قرأ أو عرف من حياة الآخرين فضلا عن أن فى امكانه أن يسجل مذكراته باعتبارها بذرة أولى لتجربة الخوض فى هذا الميدان وذلك نكون قد حاولنا أن نأخذ بيد الكاتب وكأننا بعد هذا الاملاء وذلك النصح نمسك بيده وفيها القلم ولم يبق الا أن يتم اللقاء بين القلم والقرطاس وربما كان خيره قليلا الساعة ، ولعل ذلك الخير يزداد غدا ثم يجرى بعد ذلك أنهارا حين يعثر الكاتب على طبيعته بين جنبات ذلك الفن ويتبوأ منه المكانة التى تليق بالتجربة التى خاضها والقراءات التى حصلها فليزرع اليوم ليجمع غدا وان غدا لناظره قريب .

ثالثا : الرحلة :

بعد أن نصحنا للكاتب بمصدرين أساسيين يغذى ثقافته وينمى بها موهبته ويصقل بواسطتها ملكته ويستعين بهما على ادخال الجديد فى تصويره واستعارته ويأخذ منها ما يلطف به تشبيهه وكنايته لتحظى صوره البيانية بتجديد دائما ولينعم أسلوبه برقة لم يكن قد أظهرها بعد ولتكتسى عبارته حسنا لم يكن مألوفا لها من قبل ووسيلته في ذلك هما مصدرا ثقافته التى سبق أن أشرنا اليهما ألا وهما القراءة والتجربة ولكن هذين النهرين اللذين يفيضان بالخير على ملكته لا يكفيانه بل يحسن بالكاتب أن يبحث عن مصدر ثالث يستعين به ويستمد منه ليصبح النهران ثلاثة والعصورات ثلاثة وجداول الخير تكثر مما يدعم ملكته ويجدد صورته ويقوى موهبة الكتابة عنده ان

نصدر الثقافة الثالث انما هو ذلك الشيء الجديد الذى لا يكتفى بقراءة ولا باعادة نظر ، وانما يتطلب حركة بالجسم تتبعها حركة بالعقل ونظر ثاقب لكل ما تقع عليه عيناه وأذناه انها الرحلة والحركة بعيدا عن موطنه الذى اعتاده وقد يسألنى الكاتب عن الفائدة المأمولة من وراء هذا الجهد غير المحدود فقد تكون الرحلة بعيدة بعدا يتفاوت من كاتب لآخر تدفعه اليها ظروفها وعوامل تيسيرها ومادام الكاتب قد أطلع على فكر الآخرين بما أشرنا اليه تحت عنوان القراءة ثم اطلع على فكرة هو وما حصله وهضمه ثم مارسه تجربة بعد أخرى فما الفائدة التى تعود عليه من وراء الرحلة انها المعايشة وهى كلمة لا تكثر حروفها وانما تكثر معانيها وفوائدها فسوف يقف الكاتب بواسطة هذه المعايشة على فكر أو ناس ربما لم يكن قد قرأ عنهم ، وان كان الكاتب يعرف عنهم شيئا من خلال ما قرأ فقد حصل بمعرفته وجها واحدا لهؤلاء الذين قرأ عنهم أو وجهين لكنه بالمعايشة سوف يقف بنفسه على وجوه القوم جميعا الحسن منها وغيره ويطلع من خلال معايشته لهم على كل ما رغب أن يعرفه عنهم وسوف يجد فى معرفته لأحوالهم واحاطته بها كتب عنهم وما لم يكتب معينا لثقافته عن هؤلاء يستحضر اذا أراد أن يكتب عن أحوالهم أو يقارن بين مجتمعه وهذا المجتمع الذى رآه فى رحلته ، وسوف يجد تقاليد وعادات ومناهج للسلوك ومذاهب للقول لا يعرفها فى مجتمعه ولا يألفها لذلك لا ننصح بالرحلة الا لذلك الكاتب الذى تزود من دينه وقيم مجتمعه وأخلاق بيئته وموروثات وطنه حتى لا يتأثر بذلك المكان الذى يرحل اليه ويكفيه اذا أراد أن يتنفس أن يستحضر نسيم مجتمعه المفعم بمبادئه ليتزود منه بما يريد من وسائل الحياة .

وأنا لا ألقى الكاتب فى هذا المجتمع الجديد مكتوفا مغلق العقل بل أطلب اليه أن يفيد ويستفيد فينظر ما فى المجتمع الجديد من تقاليد وعادات وأحوال تستحسنها مبادئه وقيمه التى لا تهتز بالوجوه فى هذا المجتمع الجديد ولا تستطيع أن تعصف بها أى ريح مهما كانت عاتية لتلقى عن كاتبنا مبادؤه وتطرح عنه قيمه ثم تكسوه قيما جديدة تدين لهذا المجتمع الجديد بالولاء وتتعارض مع قيمنا ومبادئنا أو تشركه عاريا بعد أن تلقى عنه مبادئه وقيمه وهذا لعمرك كاتب ضعيف لأن يطل فى وطنه تحكمه مبادئه وتزينه قيمه خير له من أن يدعى رغبة فى ازدياد مصادر ثقافته ولأن تظل ملكه الكتابة عنده محدودة خير من ضياعه ولأن يكون غير كاتب خير له من أن يسلخ بدنه من جلد كساه الله به ليبحث عن ثوب آخر يكون فيه داء لا يبرأ منه ، وربما استطاع أن ينقله الى مجتمعه عن طريق كتابته التى يذيعها وينشرها لكن الكاتب العاقل هو الذى احتاط لنفسه ، وتزود لمجتمعه بما يفيده ولا يضره وبالمعايشة هذه يمكنه اذا عرض لقصة وقعت كلها أو بعض حوادثها فى ذلك المجتمع الجديد تحدث الكاتب بفضل معايشته لهذا المجتمع بأسلوب صادق يخلو من التخيل وعدم الحقيقة وبالطبع لا نطلب من الكاتب أن يكتفى فى رحلته بأنحاء وطنه العربى يسعى اليها بشخصه ولا نطلب اليه أن يخرج الى غير وطننا العربى متجنبا هذا الوطن الشاسع اعتمادا على أن غير العرب لديهم الكثير بل نطلب اليه أن يرتحل الى أى مكان سواء كان فى وطننا العربى أو خارجه فاذا ذهبنا ننظر الى أدبنا العربى الحديث وجدنا أن أكثر كتابنا قراءة وصلة بالناس ورحلة فى الآفاق هم أكثرهم قدرة على الفهم العميق للانسان والنفس الانسانية

والمجتمعات وأعمقهم كشفا للحقائق وادراكا للحلول والاجابات فى كل ما يتصل بقضايا الانسان المعاصر ومشاكله ومنذ قديم عرف مفكرونا وأدباؤنا العرب والمسلمون أهمية التجربة والرحلة فى عمل الكاتب والعالم فارتادوا الآفاق وذهبوا الى أقصى الأرض ، ذهب « البخارى » فى رحلته الواسعة خلال سبعة عشر عاما باحثا عن النص الموثق للحديث وذهب « الغزالى » باحثا عن الحقيقة وذهب « ابن بطوطة » باحثا عن الحضارة وذهب ابن خلدون باحثا عن أصول الاجتماع وليس الكاتب المتخصص فى أمور الفكر والاجتماع وحده ، هو الذى لابد أن تكتمل أدواته بل أن الأديب نفسه والشاعر والفنان لابد أن يرى الأمم ويرى الناس ويستبطن النفس الانسانية فى كل مكان .

فالأديب الذى يكتب تاريخ الأدب العربى المعاصر كم يفوته اذا درسه على مائدته فى أى عاصمة عربية دون أن يطوف ويرى ويشاهد ويسمع عشرات من الوثائق المذخورة فى هذا القصر أو ذلك . هذه الطوابع الانسانية المتباينة بين الصحراء والمدينة ، وبين الشمال عند البحر الأبيض والجنوب عند الدمام وفى الغرب عند الدار البيضاء ، ولا ريب فان معرفة الناس وذوى الخبرات من أرباب الثقافات المختلفة فى ميادين الطب والقانون والعلم والأدب والتجارة والزراعة تقدم عصارات خالصة متدفقة من التجربة الحية .

وقد يفكر الكاتب فى أن يدعو المجتمع الجديد اليه بمعنى أن يستحضر أسرة من مجتمع غير مجتمعه أو تسعى اليه أسرة من مجتمع آخر بدافع الصدفة والظروف فيظن الكاتب أن وجوده بجانب هذه

الأسرة يحقق لـه المعايشـة التى تغنيه عن الرحلة ، وليس هذا بصحيح لأن هذه الأسرة المنتقلة الى مجتمع غير مجتمعها تحـاول جاهدة ان تتكيف مع المجتمع الذى انتقلت اليـه ، وتتفاعل قدر استطاعتها مـع تقاليد وعادات لم تكن مألوفة لديهـا بـل ربما مع لغـة ليست لغتهـا ومنهج للأسـلوب فى الحياة لعله يبعد تماما عن منهجهـا وأسـلوبها ، ومن هنـا تكون المعايشة غير تامة لرغبـة الأسرة الوافدة التكيف مـع البيئة الجـديدة مهما كلفها ذلك من تغيير فى طريقتها لاستقبال الحياة اليومية وعليه فالرحلة أفضل وأتم فى المعاينة وأكثر استقداما للمعلومات التى تغذى فكر الكاتب .

ولا يتصور الكاتب انه مادام قد قرأ كتـابا أو كتابين أو أكثر من ذلك عن مجتمع غير مجتمعه فقد حصـل على نتائج تغنى عن المعايشة والرحلة وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن الكاتب قد أصبحت لديه صورة لوجـه أو وجهين أو أكثر من ذلك نقلت اليـه هذه الصورة من خـلال ما قرأ لكن كاتبنـا لا يسـتطيع أن يزيد عليهـا لعـدم معايشـته لذلك المجتمع وسيظل يكرر هذه الصورة ويعيدها نقلا عن فلان وفلان اللذين قرأ لهمـا ، وربما لو ذهب ليخوض الرحلة بنفسـه ويحقق المعايشـة بعينيه وأذنيـه لربما رأى وسمع ووقف على ما لم يقف عليه غيره من قـرأ لهم ونقـل عنهم .

وهكذا يتبين لنـا أن المعايشـة التى تتم عن طريق الرحـلة ليست أقـل أهمية من القراءة والتجـربة ، والمصـادر الثلاثة كلهـا تغنى فكر الكاتب وتثرى صـوره وتجـدد تشبيهه واستعارته وتنمق ألفاظه وعباراته وتخـرج كتابته في منظر تتجـدد حلاوتته وتستمر طلاوته وما أحـوج

الكاتب لاسيما الناشىء الى تغذية فكره بالمصادر الثلاثة (القراءة التجربة ، الرحلة) .

أ . د . رزق مرسى أبو العباس على
استاذ مساعد بقسم اللغة العربية
وآدابها - كلية الدراسات الاسلامية
والعربية - بنين - القاهرة